الاستشراق الألماني: دراسة الشرق الأوسط والإسلام في الفترة 1800-1945

أورسولا ووكوك

مراجعة: ولفغانغ جي سشونيتز

كِتاب أورسولا ووكوك أطروحة كتبت في كلية التاريخ بجامعة تل أبيب. وبما أن للكاتبة مقالات شهيرة عن ابن خلدون، وتيودور نيولدكه، والحداثة في الشرق الأوسط، فقد بحثت هذه المؤرخة تطور دراسات الشرق الأوسط على أنه جزء من نظام على نطاق أوسع: الدراسات الشرقية، لا تزال نظامًا طفيفًا في كلية الفلسفة في النظام الحديث للجامعات الألمانية.

بعد هذه المقدمة، تتناول الكاتبة في ثمانية فصول كيف تكتب الجامعات الألمانية الحديثة عن الشرق الأوسط والدراسات الشرقية الحديثة. بحثت الكاتبة الفرق بين اللغة السنسكريتية واللغات السامية وظهور الدراسات الآشورية والإسلامية. أيضًا تقدم نظرة ثاقبة في العوامل السياسية في الرايخ الثالث، وتأتي باستنتاجات مهمّة. وكذلك فإن وجهات نظر علماء جامعات مختلفة تعد قيمة. توضح لنا الكاتبة كيفية ظهور النظم الجديدة للدراسات الشرقية، والفصل المؤسسي بين كليات اللاهوت والفلسفة. وتشير في الخاتمة، إلى الدور الداعم للجمعية الشرقية الألمانية للعلماء منذ 1845. وبالإضافة إلى هذا الدعم الذاتي المنظم، رأت الإمبراطورية الألمانية أن هناك حاجة عملية لتزويد الدبلوماسيين من ذوي المهارات باللغات الأجنبية منذ عام 1871.

في الواقع، اتبع الألمانُ الفرنسيين أو البريطانيين في الدراسات الاستشراقية. لكن كان الفارق الصارخ هو سياسات برلين اللامبريالية، وعدم وجود مستعمرات لها في الشرق الأوسط. ومع ذلك، ارتبط صعود الدراسات الإسلامية ارتباطًا وثيقًا بالممتلكات الاستعمارية في شرق وغرب أفريقيا. تذكر ووكوك المحاولة التدريجية لتقديم دراسة الشرق الأوسط الحديث كحقل أكاديمي في الجامعات الألمانية. أما مارتن هارتمان، وهو مستعرب مشهور في مطلع القرن، فقد قاد هذه الجهود التي -وفقًا للمؤلف- ظلت اتجاهًا طفيفًا، بسبب محدودية فرص السفر بعد الحرب العالمية الأولى حتى عام 1926.

ولكن التقدم الذي تم إحرازه في الدراسات الشرق أوسطية الحديثة في المؤسسات البحثية التي لا تنتمي إلى الجامعات، مثل ندوة اللغات الشرقية (منذ 1887) كان في برلين، في المعهد الاستعماري في هامبورغ. وقاد كارل هاينريش بيكر، وهوجو جروثي، ويوجين ميتفوش، وماكس فون أوبنهايم -الأخير لم يكن مستشرقًا- هذه العملية قدمًا. وعلى الرغم من أن معظم العلماء الألمان لم يشاركوا مباشرة في الإدارة الاستعمارية، إلا أنه ظهرت الحاجة فضلًا عن الاستعداد لتدريب موظفي الخدمة المدنية

العاملين تحت السيطرة الألمانية في المناطق الإفريقية التي يقطنها سكان مسلمون. ومن ثَمَّ، تم تأسيس معهد المستعمرة في هامبورغ في عام 1908. ووضع كارل هاينريش بيكر، أبو الدراسات الإسلامية الحديثة في ألمانيا، الكرسي الأول للتاريخ والثقافة الشرقية.

في العام نفسه، بدأ كارل هينريش بيكر في إلقاء محاضرات حول القضايا الرئيسة التي تواجه سياسة الشرق الأوسط الحديث. جاء كل هذا بعد عشر سنوات من بدأ قيصر سياسة رسمية تجاه الإسلام من خلال زيارته إلى الخليفة العثماني. التقت ثلاثة اتجاهات: حاجة برلين إلى السياسة العالمية، والإسلام كقوة عالمية، والتوسع في البحوث الألمانية الحديثة. ومع ذلك، فإن كلّ مَن شارك، كان منغمسًا في الحرب العالمية الأولى وفقد براءته. وشمل هذا أكاديميين من الجامعات التقليدية، الذين أيدوا الجهاد المنسق الألماني العثماني 1914–1918.

في برلين، شارك في الاتجاه الاستشراقي العديد من المؤسسات والنوادي، والجمعيات، مثل: معهد الشرق الألماني عام 1918، ونادي الشرق في عام 1920 أو معهد الإسلام في عام 1927. ونتيجة ووكوك التي ترى أن دراسات الشرق الأوسط، التي تعرف بأنها دراسات عربية وإسلامية، لم تؤسس بشكل صحيح في النصف الأول من هذا القرن– هي محل خلاف. من ناحية، نرى استمرارية في دراسات الشرق الأوسط والإسلام من جمهورية فايمار إلى الرايخ الثالث. ومن ناحية أخرى، فإن بعض المسلمين، الذين عملوا لبرلين خلال الحرب العالمية الأولى، ظلوا في ألمانيا وكانوا على اتصال بالعلماء الألمان. كما وصلت مجموعات مهمّة أخرى من المهاجرين المسلمين في موجة كبيرة من الهجرة عام 1920، مما عزّز هذا الاتجاه من البحوث المشتركة بينهم وبين الأكاديميين الألمان.

انضمت هذه المجموعات من المسلمين إلى العلماء الألمان أيضًا في إنشاء معاهدهم ومجتمعاتهم أو توسيعها. وقد أدى ذلك في برلين إلى إعادة تشكيل المعهد المركزي الإسلامي في عام 1939، فيما تمكن كبير مفتي فلسطين أمين الحسيني من إقامة معهده "اليهودي" هناك في عام 1943. ودعم النازيون مجموعة واسعة من الدراسات الإسلامية و"اليهودية"، ولا ننسى الدورات التدريبية لرجال الدين في الجيش والقوات النازية. في نفس الوقت، طارد الأكاديميون زملاءهم اليهود، ولقي العديد منهم حتفهم في معسكرات الاعتقال.

عمومًا استنتاجات ووكوك صحيحة، ولكن هناك نقطة بحاجة إلى توضيح. أولًا، الافتراض أن معظم علماء دراسات الشرق الأوسط، الذين بقوا وعملوا في ألمانيا، أبقوا على مسافة من النظام خاطئ (نجد حتى اليوم علماء يناقشون هذا ولا يذكرون عضوية الحزب النازي). علاوة على ذلك، أصبح معظم الأكاديميين نازيين. كان التعاون هو القاعدة وليس الاستثناء. خلافًا لادعاء الكاتب، لم يبدُ أن للنازيين خططًا على المدى الطويل لغزو أراضي الشرق الأوسط. اتبع النازيون تقاليد المستشار أوتو فون بسمارك بشأن عدم وجود مستعمرات، ولكنَّ حكامًا إقليميين انبروا للقيام بهذه المهمة من تلقاء أنفسهم في هرم تقاسم السلطة العالمية. عَدّ النازيون الشرق الأوسط ساحة قتال فقط، طالما أن منافسيهم الأوروبيين، مثل بريطانيا بقوا هناك، ولكن ليس كمكان لبناء مستوطنات لـ"الآريين".

ثانيًا، ترى الكاتبة أن العديد من العلماء الذين عملوا خلال عهد ألمانيا النازية استمر توظيفهم

في المؤسسات الأكاديمية العاملة في منطقة الشرق الأوسط بعد عام 1945، وهذا يعني أن الدراسات الشرق أوسطية الحديثة في ألمانيا كانت تراثًا نازيًّا، وهذا يحتاج إلى التحقيق، بما في ذلك الأثر في التراث الأكاديمي الألماني في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية. عادة، كان من المفترض أن العلماء هم من يحدد الموضوعات البحثية من تلقاء أنفسهم. لكن ادعت الكاتبة أن إنشاء دراسات الشرق الأوسط ومراحلها الأساسية حددتها عوامل خارج النظام. ونضيف أن المسلمين الذين يعيشون في ألمانيا منذ عام 1900 كما لهم تأثير في تلك الدراسات. الاتصالات بين المسلمين الذين يعيشون في ألمانيا طوال القسم الأول من القرن العشرين والعلماء الألمان من نفس تلك الفترة الزمنية تعد أبعادًا مفقودة في البحث في هذا الموضوع. ومع ذلك، تفتح دراسة ووكوك الباب أمام المزيد من الأبحاث حول الاستشراق الألماني ودراسات الشرق الأوسط حول تلك الفترة الحاسمة من تاريخ العالم. عمومًا هذا التحليل المبني على أساس تاريخي، متوازن يقدم نظرة ثاقبة للغاية، ويعد إسهامًا كبيرًا للمناقشات التي لا تنتهي، والتي أصبحت منذ الألفية الثالثة موضع اهتمام دولي كبير.